الأشكناز والسفاراد

إن الأشكنازيم نسبة الى الكلمة العبرية أشكناز التي تعني أرض ألمانيا كان أجدادهم يعيشون في القرون الوسطى في الأراضي الألمانية الـشرقية، وهم أربعة أخماس يهود العالم وعاداتهم وطقوسهم الدينية تختلـف بـشكل واضح عن السفرديم وهم يهود اسبانيا الذين سافر بعـضهم الـى أوروبـا وانتشر معظمهم في الأراضي العربية بعد سقوط الأندلس والكلمة مـأخوذة من السفاراد وتعني المسافرين من إسبانيا. ولغتهم اليديدية هي لغة جرمانيـة شرقية كالتي كانت معروفة في القرون الوسطى مع نسبة معينة من التعابير التي تختص بالدين مكتوبة باللغة العبرية وبعض السلافية.

ظهر الخزر على المسرح الأوروبي حوالي منتصف القرن الخـامس الميلادي كشعب خاضع لسيادة الهون ويعتبرون كغيرهم من القبائل التركية قد انطلقوا من السهوب الأسيوية. ولقد ظلوا خاضعين لنفوذ الهون ثم للنفوذ التركي، وبعد كسوف شمس الترك في منتصف القرن السابع الميلادي جاء دورهم ليحكموا، أخضعوا قبائل سلافية مذكورة أسـماؤها فـي الحوليـات الروسية. واتسعت الإمبراطورية وبلغت قمة مجدها في القرن الثامن. أمـا منطقة نفوذها المباشر فكانت تمتد من الشواطئ الشمالية للبحر الأسود وبحر الخزر حتى الأورال والفولجا وراء كازان، والشعوب التي كانـت تعـيش شمال القفقاس بين سلسلة الجبل ونهر كوبا، والهنغار الذين احتلوا المنطقـة بين الدون والدنيبر، والقوط والمستعمرات اليونانية في القرم وكذلك بلغـار

الفولغا جميعهم كانوا تحت سلطة كاجان الخزر.. حكم الكاجان أيضا القبائل السلافية المتمركزة حول كييف.. بل ان الخزر حاولوا شن عـدوان علـى العرب، فكانوا ينطلقون عبر ممر دابيل الى داخل أراضي الخلافة فتردهم الهجمات التأديبية العربية في اتجاه الفولغا وتعود أدراجها.

وحدثت سلسلة من هذه الهجمات ردت آخرها بقيادة مـروان الثـاني، وكان الخزر يمعنون في التقهقر حتى الفولغا واستسلم الكاجان وسـأل عـن الشروط فطلب منه اعتناق الدين الحق فأذعن على مضض. وودع مـروان أرض الخزر راجعا دون أن يخلـف وراءه حاميـة أو واليـا أو أجهـزة إدارية.فالمسلمون الذين كانوا يبنون حضارتهم الحرفية التجارية لم يكونـوا يهتمون كثيرا بتلك البلاد البربرية الكثيرة الثلوج، وكانـت امبراطـوريتهم تتسع في آفاق أخرى، ولديهم مشاكل داخلية، فلم يبددوا قواتهم في حروب مع الخزر.

وكانت تلك فرصة ذهبية لانتصار مذهب آخر في تلك الأصقاع الوثنية البعيدة عن الحضارة الإسلامية. فبعد سنوات قلائل اعتنق كاجـان الخـزر اليهودية عام 740 م.

ولقد سجل هذا التهود الذي أخذت به قبائل عدة كانت واقعة تحت سلطة الكاجان "دورثمان الأكويتاني في القرن التاسـع المـيلادي، وهـي موثقـة بالوثائق اليهودية التي تسمى "مراسلات الخزر" وهي الرسائل التي تبودلـت بين حسداي ابن شبروت الوزير الإسباني اليهودي ويوسف ملـك الخـزر حينذاك.. أما المصادر العربية فهي الإصطخري وابن رشـد والمـسعودي وابن فضلان، وكلها تلقي ضوءا على تاريخ الخزر.

ويحدثنا إبن فضلان الرحالة العربي عن رحلته الى الشمال بناء على دعوة موجهة من ملك البلغار الذي كان يسأل الخليفة المقتدر بالله العباسي 901- 932 عن الأحكام الدينية لكي يعتنق شعبه الإسلام، ويطلب أن تشيد له قلعة تمكنه من الثبات أمام ملك الخزر. وكانت هذه فرصة للرحالة كي يمر بمختلف القبائل التي كانت تقوم بين بلاده ومملكة البلغار ويعرف عن العادات وأنماط السلوك عندها، ومنها شعب الخزر.

كانوا وثنيين يعبدون قوى الطبيعة، وعقائدهم البدائية متخلفة وطقوسهم قاسية بشعة، وحياتهم متخلفة، وكانوا راغبين بتغيير نمط حياتهم بالأخذ بإحدى الديانات الثلاثة الموحدة التي تضفي عليهم هيبة بتفوقها الحضاري. وكانت اختياراتهم تأخذ بالإعتبار العداوات التي بينهم، والعادات التي لا يريدون التخلي عنها، ومدى المساعدة التي سيحصلون عليها من أي من الأطراف. كان ملك البلغار يريد بناء قلعة تحميه من اليهود الخزر الذين يتسلطون عليه، ولما لم يصله المبلغ في حينه اتهم البعثة باختلاس المال وكانت النتيجة أن البلغار اعتنقوا المسيحية فيما بعد ولم يعتنقوا الإسلام.

ويتحدث ابن فضلان عن عاصمة الخزر بقوله: "للملك مدينة عظيمة على ضفتي نهر أتل "الفولغا" حيث يعيش المسلمون على إحدى الضفتين ويعيش الملك وحاشيته على الضفة الأخرى، ويخضع المسلمون لحكم أحد تابعي الملك الرسميين وهو مسلم بدوره" ويختم تقريره بقوله "وكل الخزر" وكذلك ملكهم يهود، ويخضع له البلغار وكل جيرانهم، وهم يعاملونه بإذعان شبيه بالعبادة ويظن البعض أن يأجوج ومأجوج هم الخزر".

وفي عاصمة الخزر كان هناك سبعة قضاة، إثنان مـنهم للمـسلمين، وإثنان للخزر اليهود، وإثنان للمسيحيين وواحد للصقالبة والروس الـوثنيين، ويعلق المسعودي:

"يعيش في مدينة أتل المسلمون والمسيحيون واليهود والوثنيـون، أمـا اليهود فيضمون الملك وحاشيته والخزر الذين على شاكلته."

وهكذا نرى أن الشعوب التركيـة ذات الأصـول الواحـدة توزعتهـا الديانات الموحدة الثلاثة. ولم يكن هناك من أهداف بعيدة أو واعية تؤثر في اعتناق الشعوب الوثنية لدين ما، بل كان الأمر مزاجيا يتبع دوافع أمراء تلك الشعوب ومصالحهم الذاتية الخاصة، ومدى المنافع التي يحصلون عليها في حساباتهم.

لقد حدث تهود الخزر كما يقول الدمشقي وهو جغرافي عربي توفي في 1327م. عن طريق مهاجرين فوجدوا جنسا ذكيا ولكنه غيـر مـتعلم وقـد عرضوا عليه دينهم الذي اكتشف أهل البلاد بأنه أفـضل مـن معتقـداتهم فاعتنقوه".

لم يسمع حسداي المولود في قرطبة 910م. بوجـود مملكـة يهوديـة مستقلة حتى أخبره عنها بعض التجار فأرسل رسالة الى ملكها يستفسره عن أمرها. وكان حسداي طبيبا في بلاط عبد الرحمن ثم كلـف بتنظـيم ماليـة الدولة. ثم بالعمل وزيرا للشؤون الخارجية. وقد ظن حـسداي أن الخـزر اليهود جاؤوا من فلسطين كما جاء اليهود الإسـبان فيجيبـه ملـك الخـزر عارضا الأصول العرقية لشعبه. فيعيدها لا لأصل سامي بل الى توجرمـة حفيد يافث، وهو الجد الأعلى لكل القبائل التركية، ويؤكد يوسف بـاعتزاز

"لقد وجدنا في السجلات العائلية لآبائنا أن توجرمة كان له عشرة أبناء، وأن أسماء ذريتهم كما يلي:

يواجار- دورسو- آفار- رهـون- باسـيلي- تارينـاخ- خـزر- زاجورا- بلغار- سابر. ونحن أبناء خزر سابعهم... وهذه هي أسماء لقبائل تركية باد بعضها فيما بعد ودخل بعضها الآخر فـي المـسيحية كالبلغـار والهنغار.

إن أحد الكتاب العبريين في القرن الحادي عشر الميلادي وهو يافث بن علي، يفسر كلمة "ابن زنا" بأن يضرب مثلا بالخزر الذين أصبحوا يهـودا دون أن يكونوا منتمين الى السلالة. واليهود العرب يعرفـون ذلـك جيـدا ويطلقون عليهم اسما محرّفا وهو "السكناج" للتمييز بيـنهم وبـين الـشعب التاريخي وباقي اليهود.

وأغلب الظن أن اليهودية انتشرت بين تلك القبائل الجرمانيـة الوثنيـة خارج حدود الإمبرطورية الرومانية في دولة الخزر التي دخل ملكهـا فـي اليهودية حوالي عام 740 م. ومعه معظم الطبقة الحاكمة في اليهودية. كمـا انتشرت المسيحية الأرثوذكسية بين القبائل السلافية فيما بعد، وبقيت ظروف هذا التحول الديني غامضة، ومدى العمق الذي انتشرت فيه. ولكن بمـا أن الشعوب الوثنية كانت على دين ملوكها، فلابد أن معظم المملكة التي تسمى خزاريا كانت تعتنق المذهب اليهودي. وذلك قبل أن تدخل البلاد الـسلافية في الدين المسيحي عن طريق بيزنطية الأرثوذكسية، فأصبحت دولة الخزر محاصرة بين الإمبراطورية الرومانية الكاثوليكية والإمبراطورية الروسـية الأرثوذكسية، ومن الجنوب بالفتوحات الإسـلامية التـي نـشرت الـدعوة

الإسلامية بين أقوام كثيرة وثنية وكان لهـا اليـد العليـا فـي نقلهـا الـى طورحضاري هوسابق في مزاياه لطور الإقطاع الذي كان يـسود أوروبـا حينذاك وكان ظلا للحضارة الإسلامية الشابة حينذاك ومتخلفا حضاريا عنها.

ان قصة تهود الخزريين لا شك فيها ولا نظير لها في تاريخ الشعوب، وقد تركت أثرا لا يمحى في العالم العربي. وكان أول من سجلها دوروثمار الأكويتاني في القرن التاسع في تفصيل أكبر في مختلف الوثائق العبرية التي تسمى "مراسلات الخزر" وهي تتألف من رسالة بعث بها اليهودي الإسباني حسداي ابن شبروت الى ملك الخزر ليعرف منه ان كان نسبه يرجـع الـى الشعب التاريخي في فلسطين فكان الرد الذي أجابه به ملك الخزر. وهنـاك فقرة قصيرة من وثيقة في كامبردج تحت اسـم جنيـزا القـاهرة Cairo Geniza تعود الى القرن الثاني عشر المـيلادي تعطـي وقـائع مغـايرة للإهتداء. ونشر ج. بكستورف J.Buxtorf عام 1660 ترجمة عبرية عن مؤلف عربي كتبه يهودا هاليفي حوالي 1140 مع المراسـلات الخزريـة. وهذا الكتاب الوثائقي الذي يثير الاهتمام باليهودية في الخزر أثبته مختلـف المؤلفين العرب مثل الإصطخري وإبن رشد والمسعودي. (1)

حدثت سلسلة من الحروب بين عام 721-740 بين العـرب وأهـالي الخزر كان النصر فيها يحالف الخزر مرة والعرب أخرى حتى أدجبـرهم العرب على الإنسحاب الى شمال القفقاس الذي بقي كحدود شمالية للحـدود العربية.

كان الخزريون على صلة وثيقة مع الأباطرة البيزنطيين، فبلادهم على مفترق الطرق بين بيزنطية والعالم الإسلامي. وكانت دولتهم متسعة تـشمل

المنطقة بين نهري الدون والدنبر، وتحكم قبائل القوط والمستعمرات اليونانية في القرم والبلغار والبائل السلافية المتمركزة حول كييف.

وخلال القرن التاسع واجه الخزر عدوا جديدا بالغ القوة وهم الـروس الذين كانوا قد دخلوا في المسيحية عام 965 عن طريق بيزنطية حين وضع سفياتو سلاف حدا لسلطة الخزر. وفي 1016اشترك امبراطـور بيزنطيـة باسيل الثاني مع الروس في هجوم على الخزر واحتل مـستعمرات القـرم، وحوالي 1016 توقف الخزريون عـن أن يلعبـوا أي دور سياسـي فـي الشواطئ الشمالية للبحر الأسود التي خضعت أراضيها لبيزنطية.

كان الدين اليهودي يعاني الحصار التـاريخي بـين امبراطـوريتين مسيحيتين تنتميان الى مذهبين دينيين سائدين في أوروبا: الكاثوليكيـة فـي الغرب والأرثوذكسية في الشرق. فلما سادت المسيحية في شـرق أوروبـا وقوي نفوذها لم تعد تخشى منافسة اليهودية لها فتقلص عدد التـابعين لهـا وأصبحوا أقليات دينية في وسط مسيحي واسع الإنتشار. واعترف بهم ولـم يجدوا عنتا من مجتمعاتهم فالتناقض بين دينين موحدين لا يشبه التناقض بين المسيحية والوثنية في أوروبا الغربية، ولا يشبه التناقض الـذي سـاد فـي العصور الحديثة بين اليهودية والمجتمع المسيحي بعد نمو القوميـات إثـر انهيار الطور الإقطاعي، فلقد أصبحوا أقليات دينية لها صفة عالميـة فـي مجتمعات مسيحية تسودها المصالح القومية وتؤجج الحروب فيما بينها..

وفي الواقع ان المرحلة التي تلت كانت في صالح اليهود فما وجدوا من أنفسهم حافزا نفعيا للإندماج بالأكثرية. فأمراء الإقطاع المسيحيون اسـتولوا على الأراضي فما وجد اليهود لهم مكانا في الأرض، وأبعدوا بطبيعة الحال

عن المجالات السياسية إذ كان الحكم حينذاك هو حكم الكنيسة فتوجهوا الـى مجالات أنفع في التجارة واكتساب العلوم. وفي القرون الوسطى كانت تجارة أوروبا معظمها بأيدي اليهود، ومن ضمنها أيضا تجارة العبيد..

لم يكن النظام الإقطاعي وريث الحضارة العبودية، بل كان طورا آسنا يجرجر النظام العبودي ويتخلف عن النظام التجاري للحرفة المستقلة الـذي ساد في الأمم الإسلامية بعد أن انتقل إليها مركز الحضارة، وتوج بفتوحات الإسلام، الثورة الحاسمة التي أطاحت بآخر أنظمة العبوديـة فـي فـارس وبأنظمة الإقطاع في الدولة البيزنطية فأتاحت راية الإسلام الموحدة للشعوب على كسر الحواجزبين الأمم الإسلامية، وأتاحت للتجار أن ينقلوا منتوجـات الحرف التي يقوم بها الموالي المحررون من ربقة العبودية الى كل أقطـار العالم الإسلامي، فازدهرت البلاد واغتنـت وجـذبت بمفاهيمهـا التقدميـة وبثرائها تراث الفرس والروم واليونان، فترجمت اليهـا عيـون المؤلفـات العلمية والأدبية والفلسفية فنمثلتها وأبدعت بدورها بينما كانت أوروبا بسبب نظام الإقطاع فيها والإكتفاء الذاتي داخل الإقطاعيات تعيش مستنقعا آسنا من التخلف.

* * *